

أنا وأنت على الطريق خطر هزّ الأطفال

أيها الآباء لا تهزّوا أطفالكم... هذا هو عنوان خبر جاء في الصحيفة العربية مؤخرا..

ولقد لفت نظري هذا العنوان لأنه يذكرني بقصة حقيقية حكّتها لي جدتي وأنا بعد صغيرة. تقول القصة: إن الأخت الكبرى لجدتي خطبت لشاب وهي في سن التاسعة وتزوجت منه عندما بلغت الحادية عشرة. لكنها لم تتجب طفلا إلا حين بلغت الخامسة عشرة. ومن كثرة فرحها بالطفل الذكر الذي ولدته راحت تلاعبه وكأنه لعبة في أيديها. وجاء اليوم الذي راحت تهزه وهو الذي لم يكمل الشهرين من العمر، وتدفعه إلى أعلى في الهواء وتتلقفه بين يديها. ولمّا فعلت ذلك مرات عديدة شهق الطفل وهو في الهواء شهقته الأخيرة ولما أخذته بين ذراعيها كان قد أصبح جثة هامدة. ولم تتجب بعده ولدا ذكرا، بل أنجبت أربع بنات.

لا بد أنك سمعت بقصص مشابهة لتلك عندما يقوم أحد الوالدين بهز الطفل الصغير بهدف اللعب معه وسماع ضحكته أو على العكس بهدف تأنيبه ومحاولة إسكاته عن البكاء في بعض الأحيان. لذا جاء التقرير الذي يقول: طالبت السلطات الأسترالية من الآباء الجدد ألا يهزوا أطفالهم لحظة الغضب. وجاء هذا التحذير بعد صدور إحصاءات مقلقة في مقاطعة (نيو ساوث ويلز) حول نسبة تعرّض الأطفال للهزّ الشديد. وذكر مصدر إخباري أسترالي أنّ المستشفيات أبلغت عن حوالي مئة وخمس وثلاثين حالة تعرّض فيها الأطفال للهزّ الشديد أو للإساءة خلال عام ٢٠٠٦. وقال (كيفن غرين) وزير الخدمات الاجتماعية في نيو ساوث ويلز، إن خمس حالات مماثلة حصلت مؤخرا أيضا. وقال غرين إنّ من يقوم بهز الأطفال هم الآباء الجدد ولسن الأمهات. أنا والد لستة أولاد وأعرف الإرهاق الناتج عن قلة النوم. ولكن ليس من المسموح هز الأطفال. وأضاف غرين بغض النظر عن التعب أو الإحباط أو الغضب الذي تشعر به لا يجب هز الطفل أو ضربه لأن ذلك يمكن أن يسبّب له العمى أو الخلل الدماغي أو الصرع، أو الإعاقات الحادة وأحيانا الموت. وتابع غرين بحسب القانون يمكن توجيه اتهامات للأهل في حال تعرض طفل لاعتداء خطير.

ويتابع التقرير في شأن هز الأطفال ليقول: أبلغ أدباء في المستشفيات الأسترالية أن بعض الأطفال يعودون بعد شهر من ولادتهم إلى المستشفى بسبب إصابات سببها لهم آباؤهم. وقال باري أوفاريل، ممثل المعارضة الأسترالية أنه لا يجب تصوير كل الآباء على أنهم وحوش من أجل حل مشكلة حقيقية. وأضاف أنه من المفروض توعية الآباء وتثقيفهم بدل معاملته كمجرمين. إلى هنا ينتهي الخبر.

تري ما هو رأيك بهذه المشكلة التي حصلت ولازالت تحصل مع الآباء وربما الأمهات. فهل تنتبهين سيدتي وأنت يا سيدي الرجل في الطريقة التي تلاعب فيها أطفالك وأولادك؟ وفي الطريقة التي تتلمذ وتربي وتعاقب وتقوم بها إياهم؟ وهل تقدّرين سيدتي عطية الله التي هي بين يديك؟ وهل تنتبهين إليها وتحرصين على تقديم العناية والرعاية لها بالطريقة الصحية والصحيحة؟ يظن البعض من الآباء والأمهات أنهم وعن طريق تعنيف أولادهم أو ضربهم أو توجيه الإساءات الجسدية لهم سواء بالهزّ أو الضرب أو التسكيت القمعي، يستطيعون أن يحسّنوا من سلوكهم غير الصحيح، أو يقدرّون على إخماد أصوات أطفالهم المزعجة لهم والتي في أحيان كثيرة تقضّ عليهم مضجعهم، فهم مخطئون بالحق. لأنّ ما يجنونه من هكذا أعمال يوجهونها إلى أولادهم أو أطفالهم هو العكس تماما. فالطفل الباكي سيزداد بكاء حين تصرخ في وجهه، أو حين تهزّه وتنهره وإلى ما هنالك من وسائل قمع.

لقد علّمنا الله بواسطة روحه القدوس في الكتاب المقدس وعلى لسان نبيه سليمان الذي وهبه الحكمة والعلم والفتنة فقال في شأن الغضب الذي لا يصنع بر الله: "لا تسرع بروحك إلى الغضب لأن الغضب يستقر في حزن الجهال". جامعة ٧:٩ - "مدينة بلا سور الرجل الذي ليس له سلطان على روحه" (أمثال ٢٥: ٢٨) - "تعقل الإنسان يبطن غضبه" (أمثال ١٩: ١١) - هدوء اللسان شجرة حياة (أمثال ١٥: ٤) - "الكلام الحسن شهد عسل حلو للنفس وشفاء للعظام". (أمثال ١٦: ٢٤) أما وقد سمعت صديقتي عن نصائح النبي والملك سليمان الحكيم في شأن الغضب الذي لا يأتي بنتيجة، بينما الكلام الحسن والهدوء هما الحكمة بعينها في علاقات الإنسان مع الجميع فكيف هي الحال مع أولاده، أطفاله فلذات كبده؟ إن اللطف واللين والكلام الحسن يسكنون الغضب. ويحذر الرسول بولس أحد رسل المسيحية الأوائل الأهلين من الاحتراس من تهيج الغضب في الأولاد فيقول مسوقا بالروح القدس هذه الكلمات: "وأنتم أيها الآباء لا تغيظوا أولادكم بل ربوهم بتأديب الرب وإنذاره". (أفسس ٤: ٦) وأيضا: أيها الآباء لا تغيظوا أولادكم لئلا يفشلوا. (كولوسي ٣: ٢١)

ثم هل تعلمين يا سيدتي أن الغضب هو من أعمال الجسد؟ أي أعمال الإنسان الطبيعي التي تعبّر عن طبيعته الساقطة فيقول: "وأعمال الجسد ظاهرة، عبادة الأوثان سحر عداوة خصام غيرة سخط...." والغضب هو السخط بعينه، فهل تنتبهين سيدتي الأم إلى طريقة معاملتك مع أطفالك وأولادك؟ وأنت سيدتي المستمع؟ هل تريدان قوة غير عادية لكي تقدرنا أن تسيطرنا على طبعكما وغضبكما؟ وهل تريدان التخلص من أعمال الجسد هذه التي تقود إلى ما لا يُحمد عقباه؟ تعالينا إلى المخلص يسوع المسيح الذي أتى لكي يمنح كلاً منا خلاصاً من أعمال الجسد الخاطئة وغفرانا كاملاً من الله. فهل تؤمنان بالمخلص يسوع المسيح؟ والفادي الذي فدى البشرية جمعاء بنفسه على الصليب لكي يخلص الإنسان من عبودية الخطية ويمنحه رجاء في الحياة في دار النعيم؟
